الفصل الثاني
العالم قبل الإسلام

قبل ظهور الإسلام، كان العالم قد وصل إلى حال من البؤس والظلم والفساد والاستبداد والكآبة والقنوط، طرح الحديث عن ضرورة التغيير.

ولقد كان اليهود ـ في يثرب ـ يستفتحون على العرب ـ من الأوس والخزرج ـ بأن نبيًّا قد أظل زمانه، وأنهم سيحاربون معه ضد العرب، وينتصرون به عليهم، وأن هذا التغيير قد أصبح حتميًّا ووشيكًا.

ولم يكن هذا الاعتقاد وقفًا على اليهود، ذلك أن عددًا من قساوسة النصرانية كانوا يتنبؤن بهذا التغيير، الذي سيتم على يد النبي المنتظر، ويبدو أن بقايا البشارات التي تناثرت في الكتاب المقدس قد أسهمت في تحريك هذه النبوءات.

أما حال العالم، الذي طرح على الفكر هذه النبوءات، فلقد كان في الذروة من الظلم والفساد والاستبداد والصراعات الدموية التي لا تنتهي بين الإمبراطوريات الطبقية المستبدة ـ الروم والفرس ـ وبين الحكام والمحكومين وبين أصحاب الديانات وبين المؤسسات الدينية ورعايا هذه المؤسسات.

كان ذلك العالم مليئًا بصراعات الروم والفرس على افتراس بلاد الشرق واستعباد شعوبه، ونهب ثرواته، وقهر ثقافاته، وبصراعات اليهود والنصارى، وصراعات الآريوسيين النصارى الموحدين ـ مع المثلثة ـ اليعاقبة الأرثوذكس والروم الملكانيين، وبصراعات الأقباط ـ في مصر ـ مع الملكانيين الرومان، وبصراعات النصارى مع الوثنيين.

ولقد عرض المقريزي ـ في (الخطط) ـ لطرف من هذه الصراعات، فقال: «إنه في أيام «فوقا» ملك الروم (٦٠٢ ـ ٦١٠م) بعث كسرى ـ ملك فارس ـ جيوشه إلى بلاد الشام ومصر، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم، وأتوا إلى مصر في طلبهم، فقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبايا لا يدخل تحت حصر.

obeikandl.com

وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم، وأقبلوا ـ (اليهود) ـ نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد المقدس، فنالوا من النصارى كل منال، وأعظموا النكاية فيهم، وخربوا لهم كنيستين بالقدس، وحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس، وكثيرًا من أصحابه.

ثم مضى كسرى بنفسه من العراق لغزو قسطنطينية ـ تحت ملك الروم ـ فحاصرها أربع عشرة سنة.

وثار اليهود بمدينة صور، وراسلوا بقيتهم في بلادهم، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفًا، وهدموا كنائس النصارى خارج صور، فقوي النصارى عليهم وكاثروهم، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير.

وبعد انتصار هرقل على الفرس، أوقع هرقل باليهود وقيعة شنعاء، أبادهم جميعًا فيها، حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من اختفى.

وكان بين القبط والملكانية ـ أهل الدولة ـ من العداوة ما يمنع مناكحتهم، ويوجب قتل بعضهم بعضًا»[1].

ويتحدث المؤرخ الإنجليزي «بتلر» عن هذه الصراعات الدموية التي دامت ردحًا طويلًا من الزمن، والتي أشاعت الخراب في مختلف الأنحاء، فيقول: «لقد عصفت بالبلاد ـ مصر ـ جراء القتال بين الفرس والروم مخالب الخراب، فلم تكد تنجو من السيف حتى أصابتها مجاعة دفعت بالناس إلى الثورة، وخرج اللصوص في عصابات منظمة، وكثرت غارات البدو وقبائل السودان يهددون حدود البلاد[2].

وفي السنة الأخيرة من حكم «فوكاس» (٦٠٢ ـ ٦١٠م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، وفي السنة التي تلت ذلك ساعد يهود أنطاكية الفرس وكذلك فعلوا في بيت المقدس وعندما خضعت فلسطين للفرس؛ ثار العبرانيون بالمسيحيين، ودفعهم حقدهم الموروث إلى أن ينكلوا بالمسيحيين تنكيلًا عظيمًا، ثم لحقوا بالفرس، ونبتت بينهم مودة وثيقة[3].

(١) المقريزي (الخطط) جـ٣ ص٥٣٣ ـ ٥٣٥.
(٢) بتلر (فتح العرب لمصر) ص٧٢، ٧٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٠٠.

obeikandl.com

وكان القبط والسوريون يكرهون الروم، وكان اليهود يمقتون أتباع المسيح[١].

ولما فتح هرقل القدس، أمر أن يُجلي اليهود منها، ويمنعوا أن يعودوا بعد ذلك إلى ما بعد أسوار المدينة بثلاثة أميال، ولم يكن ذلك النفي أشد ما نزل بهم، وإنما وقعت بهم مقتلة تشبه أن تكون عامة، ولقد اشترك القبط في تلك المقتلة لما كان بهم من الموجدة على اليهود منذ فتح الفرس للإسكندرية، وكانت هذه المقتلة أول عام ٦٣٠م[٢].

ويقول المؤرخ الأرمني «جيفوند»: إن اليهود دعوا العرب ليخرجوا الـروم من فلسطين، ولقد ورد هذا الخبر أيضًا في «سبيوس»[٣].

وبانتصار هرقل على الفرس فرح المسيحيون ـ القبط والملكانيون ـ وأظهروا سرورهم جميعًا بما حل باليهود من النقمة[٤].

ولقد زحف الفرس سنة ٦١٦م فغزوْا مصر، وأخذوها كلها هي والإسكندرية وليبيا إلى حدود أثيوبيا، ثم عادوا ومعهم عدد عظيم من الأسرى وغنائم جليلة المقدار[٥].

ولقد قتل الفرس من بالإسكندرية من الرجال، ولم يكد يفلت منهم أحد إلا النزر اليسير ممن دخلوا الجحور والثنايا، ونهبوا ما في الأديرة جميعه من مال ومتاع، وهدمت الكنائس والأبنية، أو أحرقت وأصبحت خاوية على عروشها، وظلت أطلالاً إلى زمن فتح العرب لمصر.

ولقد فرضوا على الكنائس جزية تؤديها ـ واستصفوا ما للكنائس الملكانية الطريدة من أوقاف وأرزاق[٦].

ويقول صاحب كتاب (الوطن الأم): إن الفرس قد دمروا بالإسكندرية وحدها ٦٠٠ ديرًا، وبلغ عدد قتلاهم ٨٠ ألفًا وتكرر ذلك بالدلتا وبعض مدن الصعيد[٧].

ولقد كان نصارى مصر ضحايا للفرس ـ عند غزوتهم ـ وللروم ـ عند انتصارهم على الفرس ـ ويؤكد هذه الحقيقة صاحب كتاب (تاريخ الأمة القبطية) فيقول: «إن الملك هرقل ـ عندما انتصر على الفرس ـ لم يقتصر فقط على اضطهاد النصارى الذين كانوا على غير

(١) المرجع السابق. ص١١٣.
(٢) المرجع السابق. ص١٧٠.
(٣) المرجع السابق. ص١٩٥
(٤) المرجع السابق. ٨٠٢.
(٥) المرجع السابق. ص١١١.
(٦)المرجع السابق. ص١١٤.
(٧) (الوطن الأم) ص١٠٨.

obeikandl.com

مذهبه ومعتقده، بل اشتد على اليهود أيضًا، وذلك أنه لما انتصر على الفرس أغراه بعض أئمة النصارى على الإيقاع بهم بعلة أنهم كانوا يعاونون ويحرضون الفرس على قتل المسيحيين، وأنهم كانوا يشترون منهم الأسرى النصارى بمبالغ طائلة ويقتلونهم، فاحتدم عليهم الملك غيظًا، وأباح للنصارى قتلهم وسلب أموالهم وسبي نسائهم، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، ولا سيما في مدينة القدس[١].

ويحدثنا النقيوسي عن دور النصارى المصريين ـ وليس فقط الدولة الرومانية ـ في اضطهاد اليهود، فيقول: «لقد اجتمع كل المسيحيين عند البطريرك، وخرجوا في غضب، وجاءوا إلى محاريب اليهود، واستولوا عليها، واتخذوها كنائس، وسموا إحداها باسم القديس جيرجيوس، وطردوا اليهود القتلة وأخرجوهم من المدينة، وسلبوا كل أموالهم، وأرسلوهم مجردين، ولم يستطع «أرطوس» الحاكم مساعدتهم، ثم قامت جماعة المؤمنين بالرب، مع الوالي «بطرس»، الذي كان مؤمنًا تمامًا بكل ما ليسوع المسيح باضطهاد اليهود[٢].

ووسط هذه الصراعات الدموية بين الروم والفرس، كانت الحياة المسيحية تشهد ألوانًا حادة من الصراعات الدينية.

«ففي مستهل القرن الخامس يرى «نسطوريوس» (٣٨٠ ـ ٤٥١م) أسقف أنطاكية أن المسيح كان بشرًا قبل أن يكون إلهًا، بينما ـ على النقيض من ذلك ـ يعلن أساقفة الإسكندرية طبيعة المسيح الإلهية بشكل حصري (مذهب واحدية طبيعة المسيح) ـ ويفصل مجمع «أفسس» سنة ٤٣١م النساطرة، بينما يفصل مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م القائلين بواحدية طبيعة المسيح.

وفي العراق، سوف يصبح السكان نساطرة في غالبيتهم العظمى على ما يبدو.

وفي مصر وسوريا، سوف يتبنى قسم كبير من السكان مذهب واحدية طبيعة المسيح ـ القبطي في مصر واليعقوبي في سوريا ـ.

وتحتفظ الكنيسة اليونانية بجزء من أتباعها سوف يسمى في العربية بـ (الملكانيين).

(١) المرجع السابق. ص٣٦، ٣٧.
(٢) المرجع السابق. ص١٢٩.

obeikandl.com

وفي هذا التنوع المتشابك للشيع، سوف يتلون الجدل بذكريات شرك جلية»[١].

وذلك فضلًا عن «الآريوسية» ـ الموحدة ـ التي رفضت كل ألوان الحلول والاتحاد والتثليث.

● وفي هذا العالم ـ الطافح بالصراعات السياسية والدينية الدموية ـ والمليء بالبؤس الاجتماعي والمظالم الطبقية والذي كاد أن يغلق أبواب الأمل أمام الجماهير العريضة كانت الجزيرة العربية بمنجاة عن هذه الصراعات.

«ففي الجنوب، في الصحراء، لم تكن الإمبراطوريتان ـ الفارسية والرومانية ـ تمارسان بعد أية سلطة. والواقع أن المسيحية لم تخترق هذه الأقاليم إلا بشكل بالغ السطحية.

وفي قلب شبه الجزيرة، لم تكن نجد والحجاز تضمان غير عدد قليل من المسيحيين، يتألف من عبيد أقباط بين آخرين لن يتوصلوا أبدًا إلى تشكيل طوائف حقيقية، وواحة نجران الصغيرة وحدها، التي ترجع شهرتها إلى المعاهدة التي عقدها محمد مع سكانها، هي التي كانت مسيحية منذ سنة ٥٠٠ م.

أما اليهودية، فقد كانت لها بالمقابل أهمية معينة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، تشهد عليها بوجه محدد، المعاهدة المعقودة مع الفاتح المسلم.

على أن مما لا مراء فيه البتة أن الغالبية العظمى من سكان شبه الجزيرة كانت لا تزال بمنأى عن كل من الديانتين القائلتين بوحدانية الرب[٢].

وهنا، وبعيدًا عن البيئات الغارقة في الحروب السياسية والدينية ـ ظهر الإسلام «المسلح بدعوة وحدانية إلهية بسيطة ومطلقة، وسرعان ما أحرز تقدمًا، وسرعان ما سوف يتمكن من فرض جاذبيته، بتحقيقه للسكينة التي حرم منها إنسان ذلك التاريخ[٣].

كان العالم يتطلع إلى التغيير ويبحث عن الخلاص، وعن هذه الحقيقة يورد المؤرخ الإنجليزي «بتلر» قول «قيدرينوس»: «**على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك، ومن لا يخشون الله من القسوس، خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا**».

(١) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص٢٠.
(٢) المرجع السابق. ص٢١.
(٣) المرجع السابق. ص٢٠.

obeikandl.com

ثم يعلق المؤرخ «بتلر» على قول «قيدرينوس»، فيقول: «هذه كلماته التي ذكر فيها نشأة الإسلام، وهي كلمات قليلة، ولكنها تدل على أن المسيحيين كانوا يشعرون أن محمدًا كان رسولًا من الله، أو هو على الأقل سوط من الله أرسله عليهم. وهذا شعور يظهر على لسان كثير ممن كتب من المسيحيين في ذلك الوقت، أمثال «سبيوس» الأرمني، الذي قال: «في ذلك الوقت ظهر رجل من ولد إسماعيل اسمه محمد، كان تاجرًا، وقال للناس: إن الله أرسله بدعوة الحق ولما كانت الدعوة من الله، اجتمع الناس بأمره، ودانوا لشريعته، وهجروا عبادة الأوثان الباطلة، ونابوا إلى الله الحي القيوم الذي ظهر لأبيهم إبراهيم، وقد أمرهم محمد ألا يأكلوا الموقوذة، ولا يشربوا الخمر، ولا يكذبوا، ولا يزنوا».

والعجب أن «سبيوس» كان مسيحيًّا، وكان فوق ذلك أسقفًا.

وقد كان «لوقا» ـ الذي سلم مدينة حلب للعرب ـ ممتلئ القلب بما كان يبشر به قسيس من أنه كان «محتومًا أن يفتح العرب البلاد».

وكان «بازل» ـ الذي سلم مدينة صور ـ قد أخذ عن الراهب «بحيرى» ما جعله يترك الروم ويوصي أهل الدولة الرومانية بدين الإسلام.

لقد شاعت نبوءة بين بعض المسيحيين، فارتجفت لها أفئدتهم، وهي أن الإسلام حق، وأن نصره محقق»[1].

(١) (فتح العرب لمصر) ص١٨٧، ١٨٨.

هكذا كان حال العالم يومئذ: قهر حضاري روماني لشعوب الشرق، وطوفان من المظالم الاجتماعية، وصراعات بين العقائد الدينية، جعلت «الدولة» تصنع «الدين» وتختار الأناجيل الأربعة من بين نحو مائة إنجيل، وتسعى لإجبار الفرقاء المتخاصمين على صبّ اعتقادهم في القالب الذي صنعته «الدولة»، وحروب دامية بين الروم والفرس راح ضحيتها جمهور غفير من اليهود والنصارى، ومؤسساتهم الدينية، وقنوط قطع حبال الأمل والرجاء، فاتجهت عقول وقلوب إلى طلب الخلاص من خارج محيط هذا الواقع البائس، ومن شبه الجزيرة العربية، التي كانت بمعزل عن هذه الصراعات.

obeikandl.com

● ولم يكن الحال على الضفة الفارسية بأحسن منه على الضفة الرومانية؛ فالنظام الطبقي المغلق يفتك بما لدى الناس من ملكات وطاقات وإمكانات، والمظالم الاجتماعية وأغلال الاسترقاق قد هبطت بهمة الإنسان ـ بل وبإنسانيته ـ إلى الحضيض، والوثنية المجوسية قد كرست وتكرس هذا البلاء.

ويكفي أن نقرأ ما أورده شيخ المؤرخين ابن جرير الطبري (٢٢٤ـ ٣١٠هـ ـ ٨٣٩ـ ٩٢٣م) في تصوير حال الفرس عندما أطل عليهم نذير الإسلام، وما يحمل من قيم الحرية والعدل والتوحيد؛ ففي المواجهة بين هذين العالمين ـ عالم الكسروية الفارسية وعالم الإسلام ـ يحكي الطبري كيف «خرج الفارس المسلم ربعي بن عامر، فدخل على القائد الفارسي «رستم» عسكره؛ ليتفاوضا قبيل معركة القادسية (١٥هـ ـ ٦٣٥م) فاحتبسه الذين على القنطرة، وأُرسل إلى رستم بمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس، فقال:

ـ ما ترون؟ أنباهي؟ أم نتهاون؟ ـ (في الفخامة إبان اللقاء)ـ فأجمع ملؤهم على «التباهي»؛ فأظهروا الزِّبرْج، وبسطوا البسط والنمارق، ولم يتركوا شيئًا. ووُضع لرستم سرير الذهب، وأُلبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب.

وأقبل ربعي يسير على فرس له زبّاء ـ (طويلة الشعر كثيرته) ـ، قصيرة، ومعه سيف له مَشُوف ـ (مجلوّ) وغمده لفافة ثوب خَلِق، ورمحه معلوب ـ (مخزوم مقبضه بعلباء ـ عنق البعير) ـ بقدٍّ، معه جحفة ـ (ترس) ـ من جلود البقر، على وجهها ديم أحمر مثل الرغيف، ومعه قوسه ونبله.

فلما غشي الملك، وانتهى إليه وإلى أدنى البُسط، قيل له: انزل. فحملها على البساط، فلما استوت عليه، نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما، ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه، وإنما أروه التهاون، وعرف ما أرادوا، فأراد استحراجهم، وعليه درع له كأنها أضاه ـ (غدير) ـ ويَلْمَقُه ـ (القباء) عباءة بعيره، قد جابها وتدرّعها وشدها على وسطه بسَلَب ـ (ليف المقل)ـ، وقد شد رأسه بمعجرته ـ (عمامته)ـ، وكان أكثر العرب شعرة، ومعجرته نسعة ـ (حبل) ـ

بعيره، ولرأسه أربع ضفائر، قد قمن قيامًا كأنهن قرون الوعلة ـ (تيس الجبل) ـ فقالوا:

ـ ضع سلاحك.

ـ فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت.

فأخبروا رستم، فقال:

ـ ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد؟

فأقبل يتوكأ على رمحه، وزُجَّه ـ (طعنه) ـ نصل ـ (سهم) ـ، يقارب الخطو ويزجّ النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطًا إلا أفسده وتركه مُنتهكًا مُخَرَّقًا.

فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه في البُسط، فقالوا:

ـ ما حملك على هذا؟

ـ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه.

فكلمه ـ (رستم) ـ فقال:

ـ ما جاء بكم؟!

ـ قال ـ (ربعي) ـ: «**إن الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبَلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا، حتى نفضي إلى موعود الله.**

ـ قال ـ (رستم) ـ: وما موعود الله؟

ـ قال ـ (ربعي) ـ: **الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظَّفر لمن بقي.**

ـ فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟.

ـ قال: نعم، كم أحب إليكم؟ أيومًا أو يومين؟

ـ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعته ـ.

فقال ـ (ربعي)ـ: إن مما سنَّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا، ألا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث. فنحن مترددون عنكم ثلاثًا، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة

obeikandl.com

من ثلاث بعد الأجل: اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء ـ (الجزية) فنُقبل ونكفّ عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيًّا تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجًا منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، إلا أن تبدأنا. أنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى.

ـ قال ـ (رستم) ـ: أسيدهم أنت؟

ـ قال: **لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم**»[1].

فلما تمت هذه المواجهة ـ بين هذين العالمين ـ عالم الإسلام وعالم الكسروية الفارسية ـ على هذا النحو الذي صوره الطبري ـ وسمعت الفرس مقالة ذلك العالَم الجديد، والغريب قال عامّتهم:

ـ صدق، والله العربي.

وقالت الدهاقين ـ (رؤساء الأقاليم) ـ:

ـ والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أوَّلينا، ما كان أحمقهم حين كانوا يُصَغّرون أمر هذه الأمة ـ (العربية) ـ»[2].

هكذا أذَّن مؤذن العدل والتوحيد والحرية من شبه الجزيرة العربية، واقتحمت أصوات هذا العالَم الجديد آفاق الفرس والروم.

***

ولقد حدث وشهد الشرق جولة جديدة من الصراع التاريخي بين الروم والفرس، هزمت فيها الفرس الروم ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الروم: ١، ٢) وتنبأ القرآن الكريم بكرة أخرى ـ وأخيرة ـ ينتصر فيها الروم على الفرس ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ (الروم: ٣، ٤).

وتحدث القرآن عن فرح المسلمين بهلاك طرفي الظلم في هذا الصراع، والذي سيأذن بالفتوحات الإسلامية، التي ستطوى عالم هذا البؤس وذلك الصراع التاريخي والمرير، وتطوى معه صفحة الشرك والوثنية في شبه الجزيرة العربية ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ (الروم: ٤، ٥).

(١) الطبري (تاريخ الرسل والملوك) جـ ٣ ص٥١٩، ٥٢٠. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦٩م.

(٢) المصدر السابق. جـ ٣ ص٥٢٢.

obeikandl.com

فلقد كان فرح المؤمنين ـ كما يقول الفخر الرازي (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ ١١٥٠ ـ ١٢١٠م) بغلبتهم المشركين يوم بدر (٢هـ ـ ٦٢٤م)، وليس بغلبة الروم ـ الذين أذلوا البلاد والعباد ـ كما صنع الفرس ـ وبعبارة الرازي: «.. **والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين**، وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين ببدر، ولو كان المراد ما ذكره ـ (جمهور المفسرين) ـ «يفرحون بغلبة الروم على الفرس، كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ـ لما صح؛ لأن في ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم ـ (إلى المسلمين) ـ خبر الكَسْر، فلا يكون فرحهم يومئذ، بل الفرح يحصل بعده..»[١].

ومع الـرازي ـ في هذا التفسير ـ يقف الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ ١٠٧٥ ـ ١١٤٤م) الذي يقول في (يفرح المؤمنون بنصر الله) ـ «**وقيل نصر الله: أنه أولى بعض الظالمين بعضًا، وفرق بين كلمتهم حتى تفانوا وتناقصوا، وفلّ هؤلاء شوكة هؤلاء، وفي ذلك قوة للإسلام. ولقد وافق ذلك يوم بدر، وفي هذا اليوم نُصر المؤمنون**»[٢].

ومع الرازي والزمخشري يقف القرطبي (٦٧١هـ ١٢٧٣م) عندما يقول: «**وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله على المشركين؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبي عليه السلام يوم بدر**»[٣].

لقد فرح المؤمنون بأول نصر عظيم على الشرك، يوم بدر، وصادف هذا النصر ذات اليوم الذي هُزم فيه الفرس أمام الروم ـ في (أدنى الأرض) ـ أعمق مكان على ظهر البسيطة ـ عند البحر الميت ـ «**فولّى الله بعض الظالمين بعضًا، وفرق بين كلمتهم، حتى تفانوا وتناقصوا، وفلّ هؤلاء شوكة هؤلاء، وفي ذلك قوة للإسلام**».

ذلك لأن صراع الروم مع الفرس، قد فلّ حديد الظالمين جميعًا فانفتح الباب لعالم جديد.. عالم الإسلام وفتوحات الإسلام التي طوت صفحة ذلك العالم القديم. عالم البؤس والظلم والاستبداد والصراعات الدموية التي أثقلت كاهل البلاد والعباد.

(١) الرازي (مفاتيح الغيب) جـ ٩، ص٨٧. طبعة دار الفكر، بيروت سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.
(٢) الزمخشري (تفسير الكشاف) جـ ٣ ص٢١٤. طبعة طهران.
(٣) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ ١٤ ص٦. طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة.

obeikandl.com